

من أمّاربت اوزاهز: (*)

حكمة القدر

للاستاذ على الطنطاوى

دخل علينا أمس ، وكنا جماعة في المجلس صديق لنا ، فقال :
إن ابنة الأستاذ حبيب زحلاوى قد سقطت من الطبقة السادسة
إلى الشارع ا فارتعنا جميعاً ، وأعظمنا الخطب ، وكنا نمرقها
طفلة حلوة ملء إهابها الطهر والجمال والنشاط ، فلم نستطع أن
نتصورها ، وهى مزق من اللحم قد اختلط بعضه بيمض ، ووجنا
وكانت سكتة لم يقطعها إلا نضح صديقنا الخبز ، فمرقنا أنها مزحة
ثقيلة من مزحانه ، وأقبلنا عليه نسبه ونشتمه ، فقال : والله
ما كذبت عليكم ، ولقد وقعت من الطبقة السادسة ولكنها لم
تصب بشئ ، وهى سليمة ...

فصرخنا جميعاً : سليمة ؟ ا قال : نعم والله . ألا تصدقون ؟
إنها وقعت على حبال النسييل الممدودة بين الشرفين حيال الطبقة
الخامسة ، فعاقتها قليلا ، ونفذت منها إلى حبال الطبقة الرابعة ،
وما زالت تمر من حبال إلى حبال ، حتى إذا بلغت الشارع ، كانت
سقاطها على كومة من الرمال ، صبها سياراة صباح ذلك اليوم ،
نم تصب بأذى .

ومضى يحلف ويذكر الإيمان أن الذى يرويه هو الصدق
والحق ، وأن صبياً لصدىق آخر لا أسمىه لثلاث أسوء ، وأذكره
بصابه ، وقف على مكتب أبيه يلعب ، فرأى صورة معلقة بالجدار ،
فوثب يريد أن يسل إليها ، فوقع على أرض الغرفة ، وكانت من
البلاط ، وكانت السقطة على يادوخه ، فبات لساعته ...

وقال معلماً ومتفلسماً : فقيم إذنت تفكر وتدبر ، ما دام
لا يتفعلنا فكر ولا يفيدنا تدبير ، ولم لاندع الأمور للقدر ونتركها
تجبرى فى أعنتها كما يريد لها مجربها ، ما دمنا لا نملك أنفسنا
ولا نعرف مصائرنا ، وما دام هذا الكون كالمعمل الضخم ،

(*) سجل فى مصر وأذيع من مجلة الشرق الأدنى فى القدس .

وإخافة أهل البنى والبهتان .

ثم سأل : ماذا تعمد بكلمة « أدب » بالضبط ؟ أحسن
تقدير هو أم ماذا ؟

ويبدو لنا أن الذى دعا الطالب النجيب إلى هذا السؤال
ما سبق إلى فهمه من أن الأدب لا يكون إلا من صغير لكبير .
والواقع أن الأدب صفة مطلوبة فى كل معاملة ، كما نطلب
فى أدب الراعى نحو الرعية ، وأدب السيد نحو الخادم ، وأدب
العظيم نحو الصغير .

وأدب النبي هنا هو أدب الربى الذى يتهد أتباعه ومريديه
فيهمى كلامهم لما يصلح له ، ويقوى فيه ما يصلح مع القوة ،
ويضعف فيه ما ليس به صلاح له ولا لغيره . ومما يه عمر إنما هى
مهابة للمدل والحق والإيمان ، فمن الخير أن يبقها له وينتظر منها
النفع للدين ومعتقديه .

وفى الأسئلة بقية ترجع إلى جملة من الكلام على صفات
الفاروق ، بمد رواية ما قيل عن إقامته الحد على ولده عبد الرحمن
وهذه هى الجملة : « لو كان المصدر واحداً مروراً بالحدق فى
القصص لحسبناها من وضعه وتلفيته . ولكنها سمعت من غير
مصدر موثوق به ، فهى أقرب إلى الواقع . »

والسؤال هو : أقصد أنها سمعت من مصدر غير موثوق به
أم أنها سمعت من أكثر من مصدر واحد موثوق به ؟

وعلى قدر ما كان الطالب موقفاً فى سؤاله عن المهابة خانة
التوفيق فى هذه الأسئلة . فلا يمكن أن يكون المقصود مصدراً
واحداً ؛ لأننا استبعدنا ذلك ، ولا يمكن أن يكون عدة مصادر
غير موثوق بها ؛ لأننا نقول إنها أقرب إلى الواقع ، ولا التباس
بعد هذا فى المعنى لأننا نتقى وحدة المصدر ، ونتقى وضعه وتلفيته
ونقول قبل ذلك عن القصة « إننا لا نستغربها فى جميع تفصيلاتها
إلا حين تطرأ عليها المبالغة التى تسرب إلى كل خير من أخبار
البطولات الشهورة ... »

وبعد ، فهو على كل حال اجتهاد يدل على حب الفهم
والاسترشاد

عباس محمود الهفار

وإنما ناهرا في بيده لا أول لها ولا آخر، وهاموا على وجوههم في مهمة متشابه الأرجاء ، بلا أمل ولا رجاء ، فذهب هذا ينكر القدر ، وزعم أن الحياة ملك للإنسان ، وأحداها صنع بيده ، وراح ذلك ينكر إنسانيته ، ويجحد نفسه ويراها مسهرا في آلة الكون ، وحجرا في جبل ، يدور مع الأرض أنى دارت . وكان هذا متشاعما لا يرى إلا الذي وقع عن الكرسي فئات ، فاعتقد أن الدنيا دار المصائب ، وكان ذلك مغرورا ، لم يبصر إلا التي وقعت من الطبقة السادسة ولم تمت ، فحسب أنه يسلم من كل أذى .

ونحن مع القدر بشر ، لا آلهة ولا حجر ، والدنيا ليست مصرة كلها ولا مصائب ولكنها مسرة وكدر .:

وأنا كلما فكرت ، وذكرت ما رأيت من الحوادث بعيني ازدادت يقينا بأن أكثر الناس لا يعرفون سر الإيمان بالقدر :

رأيت الترام مرة وقد انكسر بمقوده ، فأمحط من المنحدر الهائل عند (الجسر) في دمشق ، وكانت امرأة واقفة بين خطيه بعد المنطف ، فلما رآته مقبلا كالوت النازل ، سمحت رجلاها من فزعها بالأرض ، وجدت ولم يجزئ أحد أن يدنو لإنقاذها فيموت معها ، والوقت أضيق من أن يتسع لشيء ، فأغمضوا عيونهم حتى لا يروا . . . فلما وصلت الحافلة إلى المنحنى تركت الخط وسارت قُدما ، فصدمت جداراً من اللبن ضيقاً ، وصرت منه إلى قوم في دارهم فقتلهم .

ورأيت مرة بيني شباباً بمشون تحت فندق (إيدن بالاس) في دمشق ، فرقع أحدهم رأسه فجأة فرأى شيئاً ساقطاً فتناوله بيديه ، وإذا هو صبي رضيع وقع من شبك الفندق ، وهبطت أمه كالجنونة . وهي امرأة من (حماء) فرأته سالماً .

ورأى غيرى حوادث مثل هذه الحوادث . وفي كتاب (الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي) مئات من القصص عن نجاة وهو في لج الملاك ، وفي كتاب الحياة آلاف من الأخبار عن هلك وهو على بر النجاة .

فاسر هذه العجائب ؟ وكيف عاشت المرأة وقد فرطت وعرضت نفسها للموت بسيرها بين خطى الترام ، ومات قوم اتخذوا كل أسباب الوقاية ، فدخلوا دارهم ، وأغلقوا بابهم ، فشق الترام الحائط ودخل عليهم فدعسهم ، وكيف وقعت البنات فلم تمت ، وتوفت كل يوم مئات من البنات من غير وقوع ؟ .

شباك الآلات ، التمدد الحركات ، وما نحن إلا مسمار صغير فيه ، ير كما يسيرنا (مهندس) الأعظم . . .

وأمرع واحد منا ، فقال مصدقا : نعم ، ولكننا خلقنا نقاء ، وأقنا هدفاً للمصائب ، ووضعنا في دنيا ما فيها إلا الآلام من سلم منها اليوم وقع غداً ، ومن لم يمت ولده من سقطته مات من عاتيه ، أو مات وهو صحيح معاني ما من الموت بد . . . ولا بد من الموت من البلايا والمتاعب . . .

وتكلم ناك ، يرى نفسه من كبار العقلاء ، فأنكر القدر ، وبعد القدر . وزعم أن الحياة ليست إلا عجيبة في يدك ، أنت يراها وتصورها ، فإن صنعت منها تمثال غادة جميلة كان لك جمالها ، إن عملت منها هولة قبيحة كان عليك قبيحها . . . إن مرضت في إنفلاك الشتاء وإهالك التوق ، وإن دعست^(١) فن تركك سذر ، وإن افتقرت فن قوموك عن السمي . . . وأمثال ما الكلام .

فقلت له : فلم ولد هذا في دار علم وتهذيب فتعلم وعرف سبل قاية ، وخطر الأمراض ، ونشأ ذلك في بيت جهل وفساد ، سب جاهلا فاسداً ، لا يعرف كيف يتق الماء ، ولماذا دعس . . . من قلة حذره ، وسلم من هو أقل منه حذراً ، وطريقه أشد طراً ، ولماذا يسمي الرجل حتى تنقطع من السمي أنفاسه ويرجع . . . يصل ولا إلى مثل خفي حين ، وتأتي الأموال لآخر بلا سمي ؟ طلب ؟ . . .

ولماذا يتاح لهذا النابذة أن يظهر نبوغه ، حتى يكون اسمه يبيها على كل لسان ، وعنواناً في كل كتاب ، ويجعل من هو دمنه ذكاه ، وأكبر موهبة ، وأظهر استعداداً للنبوغ ؟ .

ولماذا ؟ ولماذا ؟ وألف لماذا ؟ لو شئت لسقتها لك فما تطعت الحواب على واحد منها ، فما أنت في الوجود ، هل تسيرت الفلك على هواك ، وهل تسوق الكون إلى غايتك . هل تله ؟ إلك ما كوت نفسك ، ولا شققت بيدك سماءك ؟ بصرك .

قال : فهل ترى أنت أن الإنسان مسير ؟ .

قلت : ما مسير ؟ وما مخير ؟ وما هذه الفلسفة الفارغة ؟ لقد شغل بها البشر ، من يوم بدأوا يفكرون واختلفوا عليها ، بما دلوا ، ولا يزالون يختلفون ويتجادلون ، لم يصلوا إلى شيء .

(١) الدعس : من العان اللعيب .

ونصبوه على السرير ، وجاؤوا بالنسل ليذله ، فلما أحس برد
الماء ، تيقظ ونهض ، فارتاع النسل وسقط ميتاً .

فلا تسأل ما السر ، ولكن جاهد في سبيل الله ، وناضل
عن الحق ، ولا تخف الموت في جهادك ونضالك لأن الأجل
محدود ، فقد تعيش مائة سنة ولو خضت غمرات الموت ، فاعمل
لديناك كأناك تعيش أبداً ، واعمل لأخراك كأنك ميت غداً ،
فتسكون قد ضمنت لنفسك الدنيا والآخرة ، وهذى حكمة
من حكم القدر .

فالإيمان بالقدر حياة لأنه يفتح لك في كل ظلمة شعاع ضياء ،
وفي كل عسرة باب رجاء ، ولولا الرجاء لمات المريض من وهمه
قبل أن يميتته المرض ، ولقتل الجندي في الحرب من خوفه قبل
أن يقتله العدو ، ولولا الرجاء ما كانت الحياة .

ولو تركت الأمور لاحتالات العقل ، وقوانين المادة ، لما
استطعت أن تنفس الهواء أو تشرب الماء خشية أن تكون فيه
جرثومة داء ، ولا ركبت سيارة لا تحتمل أن تصطدم ، ولا سمعت
بناء لإمكان أن ينهدم ، ولما استولدت ولدناً لأنه قد يموت ،
ولا اتخذت خليلاً لأنه قد يخون ، ولما اطمانت على مال لأنه قد
يسرق ، ولا دار لأنما قد تحرق .

والإيمان بالقدر راحة لأنه لو كان الفشل من عملك وحدك ،
وكان النجاح من صنع يدك لقلعت نفسك أسفاً إن فشلت ،
أو سبقت .

والإيمان بالقدر عزاء ، لأنك إن قدر عليك المصاب بولد ،
فاحمد الله في الناس من أصيب بولدين ، وإن خسرت ألفاً ففهم
من خسرا ألفين .

فهل عرفتم الآن ما حكمة القدر ؟

هي أن نجد ونعمل ونسعى ، ونبذل الجهد ، ثم لا نحزن إن
فشنا ، ولا نأس إن لم نصل إلى ما نريد وأن نكون مع القدر كما
يجتاز طريقاً فيه السيارات الزدحمات ، فإن ذكر حوادثها
وأخطارها وحدها لم يستطع أن يتقدم خطوة ، وإن اعتقد من
غروره أنه يستطيع أن يرد عنه السيارة المقبلة ، ويدفع الخطر
الآتي ، لم يسلم ، ولكن إن اتبته وسار بحذر ، فهذا هو العاقل ،
ثم إن يحمد الله أن قدر عليه النجاة ، وإن أصيب ذكر أنه لم
يقصر ، وإنما هو حكم القدر ...

علي الظنطاري

(دمشق)

إن هذا السر ، سر الله لا يعرفه أحد ، فلا تحاولوا كشف
سر القدر ، ولكن استفيدوا من حكمة القدر . وهذا ما سمعت
له حديثي .

ستقولون ، وماذا نعمل ؟ هل ندع أولادنا يستقون من
الشبابيك لا نبالي لأنما إن كانت لهم حياة فسيبث الله لهم حبالا
تمسكهم ، أو رجلا تلتقاهم ، ولتقدم عن الهمي لأنه إن كان لنا
رزق فسيأتينا بلا همي .

لا يا سادة ، ما هذا طريق فهم القدر ، ولا هذه
حكمة القدر .

صحيح أن الرزق مقدر ، فهذا وضع له رزقه على مكتبه ، فإنا
عليه إلا أن يقدم على كرسيه ، ويمسك قلعه ، ويكتب اسمه
الكريم كل نصف ساعة مرة على أوراق تعرض عليه ، وهو
يشرب قهوته ، ويدخن دخينه ، فيأتيه الرزق ؛ وآخر وضع رزقه
في رأس الجبل عليه أن يصعد إليه ، أو في بلد بعيد عليه أن يمشي
إليه ، أو في باطن الأرض ينزل إليه ، أو في جوف البحر ينوص
فيه ، أو في جيوب الناس يأخذ منها ، ليقبض عليه ، فيتحول
رزقه إلى السجن .

كل يأكل لقمة ، ولكن من الناس من نجيبه اللقمة في
صفحة من القضة ، ومن يأكلها مغموسة بالدم ، أو مبللة بالمرق ،
أو مملوطة بالرحل .

لا لا تنقل ما سر القدر ، فإنا كشفه حاجة لأحد ، ولكن ،
مادام الأمر مجهولاً ، فاسع أن تأكل أنت لقمتهك بطبق الذهب ،
وجد وابذل الجهد ، فإن لم تصل إلى ذلك وصلت إلى الرضى
والتسليم بحكم القدر وهذى من حكم القدر .

والأجل محدود ، لا يدقمه إذا حضر حذر ، ولا يضرب إن
امتد خطر ، وقد يموت الشاب المسحيج ، ويميش الشيخ العليل ،
ويهلك المنتصم بسبمة أسوار ، ويسلم الجندي الذي يقتحم النار ،
أعزف رجلا من أبطال الثورة السورية ، رمى نفسه على الموت
خمسين مرة فكان الموت يروغ من تحته ويهرب منه ، ثم انتهت
الثورة ، ونام في فراشه ، فاختصم إثنان من السكاري ، فأطلق
أحدهما رصاص مسدسه ، فأصاب خطأ رأس صاحبنا الذي نام
فما قام .

ودرى ابن الجوزي أن رجلاً أغشى عليه لحسبوه مات ،